

من هدى النبي، صلى الله عليه وسلم، في التعايش مع الآخر: -ميثاق نصارى نجران نموذجا-

ذ. محمد الناصري

باحث في الدراسات الإسلامية

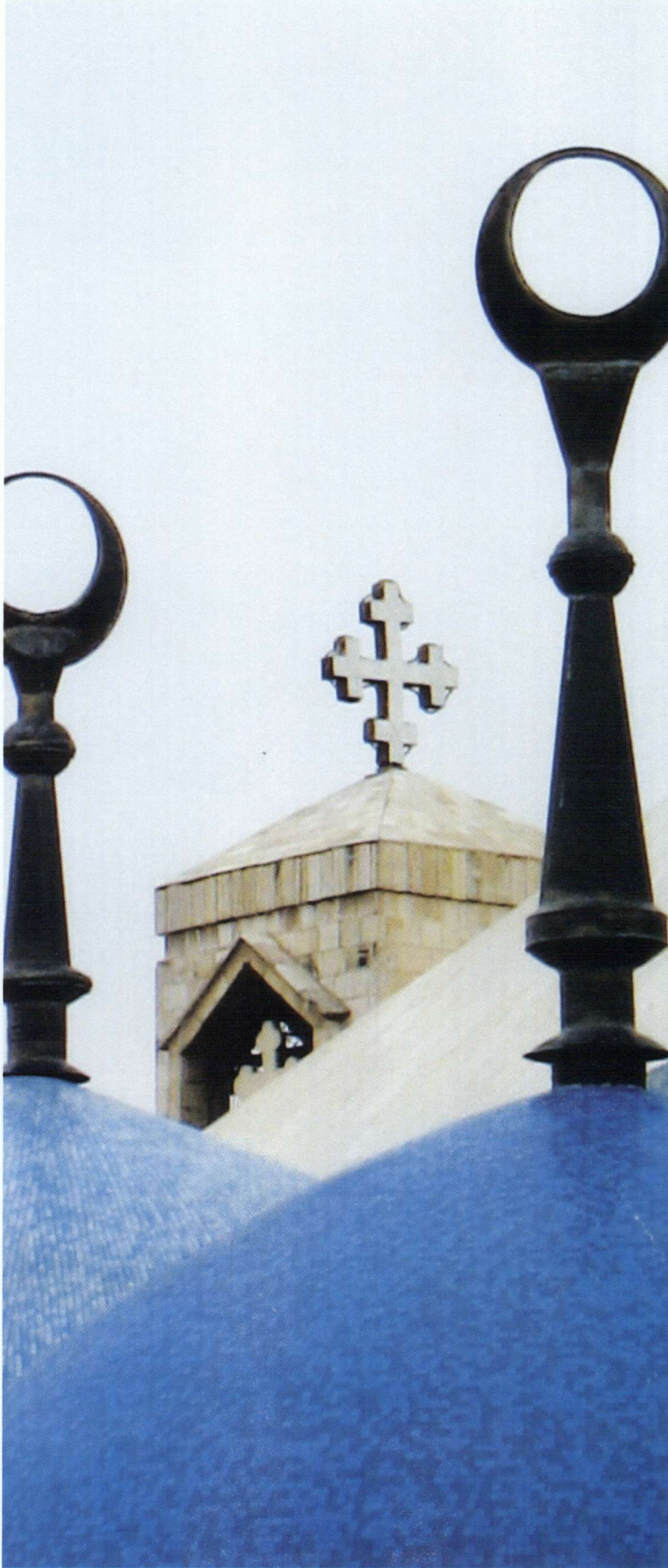
صلى الله عليه وسلم، مع المخالف دينيا وعقيدا، والتي تمثل معالم رئيسية لكيفية التعامل مع الآخر؛ كما تمثل حلا مناسباً لمجال العلاقة بين المسلمين وغيرهم في زمننا المعاصر. ومن بين هذه الوثائق والعهود، ميثاقه صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران وهو ذلك العهد¹ الذي أبرمه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مع نصارى نجران حين قدومهم عليه عقب غزوة تبوك عام 9هـ² وهو عهد "يمثل قمة من قمم العدل والسماحة والحرية"³ والذي بفضلته تمكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، من استيعاب كل "النصارى؛ نصارى نجران وكل المتدينين بالنصرانية، في صلب الأمة الواحدة"⁴ ومن تبديد "هاجس خوف النصارى من تكرار المحرقة اليهودية التي ظل نصارى نجران يعانون منها طيلة سنوات خلت"⁵. فما الذي

السيرة النبوية باعتبارها مرحلة بناء النموذج الذي أتى على أصول الحياة جميعاً، دليلاً لكيفية التعامل مع حياة الناس، وتنزيل قيم القرآن عليها... وتعتبر المساحات الكبيرة التي قدمتها السيرة النبوية للتعامل مع الآخر بشتى أنواع التعامل من التصالح والتسالم والتعاهد والتجاوز والتعاقد والتحالف والمواجهة.. جزءاً مهماً من حوادث السيرة وبعداً أصيلاً من أبعادها المقاصدية.

وفي حقبة الانفتاح العالمي، واختزال الزمان والمكان واستحقاقات "حقبة العولمة" ومعهادات الشراكة على المستويات السياسية والاقتصادية والمعلوماتية.. تصبح الحاجة أكد إلى استلزام فترة السيرة النبوية وعطائها في هذا المجال، ليشكل لنا أداة عمل وإشارات هادية على الطريق الطويل، فكثيرة هي العهود التي أبرهما الرسول،

تعد





ضمنه الميثاق لنصارى نجران؟

لقد جاءت نصوص العهد ضامنة لنصارى نجران من الحقوق ما يحفظ إنسانيتهم ويصون كرامتهم إذ نص الميثاق على:

أولاً: الحرية

1. احترام حرية الاعتقاد؛ فالفقرة 60 من العهد تنص على أنه "لا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرها على الإسلام"⁶، بما ينسجم كلياً مع قوله تعالى: "لا إكراه في الدين" (البقرة: 255)، ويتوافق تماماً مع قوله عز وجل: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" (الكهف: 29).

ومن مظاهر حرية الاعتقاد التي كفلها الميثاق لنصارى نجران:

أ. حرية الحوار الديني؛ إذ جاء في الفقرة 20: "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن" (العنكبوت: 46)، ويخفف لهم جناح الرحمة ويكف عنهم أذى المكروه حيثما كانوا وأينما حلوا⁷. وهو نص واضح الدلالة في التأكيد على ضرورة سلك أحسن السبل في الحوار مع النصارى ووجوب التزام المنهج القرآني في الحوار مع أهل الكتاب، بما ينسجم وقوله تعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل: 125). "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن".

ب. حرية ممارسة الشعائر التعبدية؛ إذ نصت الفقرة 30 من العهد على احترام الأساقفة والرهبان وعدم التعرض لهم بالتغيير "ولا تغيير أسقف عن أسقفية، ولا راهب عن رهبانية"⁸ وقد أعطى الرسول، صلى الله عليه وسلم، القدوة في الالتزام بهذا الأمر، يشهد لذلك موافقته، صلى الله عليه وسلم، وفد نصارى نجران أداء طقوسهم التعبدية وإقامة صلاتهم بمسجده⁹.

ج. حق إقامة المعابد؛ إذ نصت الفقرة 33 من الميثاق على عدم "هدم بيت من بيوت بيعهم، ولا إدخال شيء من بنائهم في شيء من أبنية المساجد

ومسامحة أهوائهم¹³.

ولا يحق للمسلم إكراه النصرانية على تغيير دينها إن قبلت الزواج منه، بل عليه الرضا بذلك والتسليم به، وفي هذا نقرأ من الميثاق "إذا صارت النصرانية عند المسلم، فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها في الاقتداء برؤسائها والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك"¹⁴.

ويسجل ابن قيم الجوزية في كتاب "أحكام أهل الذمة" حواراً حول مسلم تزوج بذمية، سأل فيه، هل له أن يمنعها من شرب الخمر؟ قال: يأمرها.

قيل: لا تقبل منه، أله أن يمنعها؟ قال: لا¹⁵.

وفي هذا دلالة قاطعة على مدى احترام الإسلام للآخر ولخصوصياته الدينية والثقافية... إلى حد بعيد... من منطلق إنسانية الإنسان وكرامته الأدمية.

ثانياً: العدل والمساواة

إلى جانب تقرير الميثاق لكل أشكال الحرية بما يحفظ إنسانية وكرامة النصارى، نص على أن "العدل في القضاء والمساواة في تحمل الأعباء المالية... فريضة إلهية شاملة لكل الأمة على اختلاف معتقداتها الدينية"¹⁶.

ففي الفقرة 48 من الميثاق نقرأ "ولا خراج ولا جزية إلا على من يكون في يده ميراث من ميراث الأرض ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدي ذلك على ما يؤديه مثله، ولا يجار عليه، ولا يحمل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارته وإقبال ثمرتها، ولا يكلف شططا، ولا يتجاوز به حد أصحاب الخراج من نظرائه"¹⁷.

ومن تجليات "كامل المساواة" بين المختلفين في الدين، الذي حرص الميثاق على تقريرها، قوله صلى الله عليه وسلم: "لأنني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم بالعهد الذي استوجبوا

تمثل الإسلام بين الانفتاح والانغلاق

"...رؤية الإسلام التقدمي الحرة تنأى نأياً مطلقاً عن مذهب الانفصال عن المجتمع وعن الإنسانية، وتجنح بصورة قاطعة إلى إنكار نهج القطيعة والانفصال المحلي والكوني الذي يوجه فكر وعمل كل من الإحيائية الدعوية والإحيائية القتالية. قد يقال هنا إن القطيعة خيار الإحيائية الراديكالية أو القتالية، وإن الإحيائية الدعوية لا تلتزم بهذا المنهج. والحقيقة أن الإحيائية الدعوية، عند الفحص المدقق لمواقف رموزها، تتمثل هي أيضاً نهج القطيعة. صحيح أن القطيعة عندها لا تتخذ طابع العنف المادي، لكنها في حقيقة الأمر صريحة في ما يمكن أن يكون "قطيعة علمية". وذلك يعني فصم الروابط والصلات بالمخالفين، والجنوح إلى عزل الآخرين المخالفين وهجرهم ونبذهم علائقياً واجتماعياً والتشكيك في عقيدتهم وأخلاقيهم. ونسبتهن إلى الزيف والضلال، أو البدعة والكفر. وليس ثمة شك في أن بعض الحالات التي ترتبط بهذه الرؤية يمكن أن يجلب أضراراً بالغة للإسلام والمسلمين (...)

يغلب على مفكري إسلام التقدم، الروح الإنسانية التي تتخذ عندهم شكل الحرية الفكرية، والانفتاح العقلي الذي يدرك حدود الفلسفة النسبية ومفهوم "الاعتراف" الحديث، بينما يتسلح الإحيائيون جميعاً، بدجماطية متصلبة ومواقف لا تقبل المراجعة والنظر، وبدعوى القول إنهم وحدهم مالكو الحقيقة، وإن الحل الذي لديهم هو الحل الأوح الذي لا حل سواه، وإن جميع مخالفاتهم خارجون، وفي ضلال مبين، ومبتدعة، وإنهم بكلمة، "الفرقة الناجية"، وحدهم لا أحد سواهم (...)

إن ما ينبغي الوقوف عنده هنا، من جديد، هو أن الإحيائية الشاملة الراديكالية تجسد روحاً مباينة كل المباينة للروح التي تكتنف مفكري الإسلام التقدميين. فحقيقة الأمر هي أننا قبالة منظورين لحضور الإسلام في العالم الحديث والمعاصر: منظور روحه التواصل والرحمة والحرية والاعتراف والالتحام بالمجتمع المسلم والتفاعل مع المجتمع الإنساني الكوني؛ ومنظور روحه المواجهة والكراهية والعداء الصدامي."

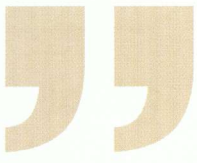
فهني جدران، "أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث"، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط4، 2010، ص: 15-16-17.

ولا منازل المسلمين¹⁰. ولا يقف الميثاق عند حد إقرار حق إقامة المعابد للنصارى، بل يتجاوز ذلك في تسامح كبير إلى حد التعهد بالدفاع عن كنائس وبيع وبيوت صلوات النصارى؛ إذ نقرأ في الفقرة 18 من الميثاق "وأدب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السباح، حيث كانوا من جبل أو واد أو مغار أو عمران، أو سهل أو رمل، وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا، من بر أو بحر، شرقاً وغرباً، بما أحفظ به

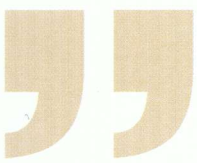
نفسي وخاصتي، وأهل الإسلام من ملتي"¹¹.

د. الحرية في الزواج بالمسلمين؛ جاء في الفقرة 72 من الميثاق أن النصارى "لا يحملوا من النكاح شططا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضاروا في ذلك إن منعوا خاطباً وأبوا تزويجاً؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيية قلوبهم

شكّلت السيرة النّبوية مرحلة البناء التاريخي للمودج الأخلاقي القرآني..



بقدر عناية ميثاق نصاري نجران بالقيم ذات الطابع السياسي، بقدر عانيته بالقيم والأخلاق الاجتماعية..



ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى؟ وكل كلام، وكل تعليق، وكل تعقيب، يتهاوى دون هذه القمة السامقة، التي لا يبلغها البشر وحدهم، بل لا يعرفها البشر وحدهم، إلا أن ينقادوا بمنهج الله، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء؟²²

خامسا: واجبات أهل الذمة

ولأن وحدة الأمة لا تتحقق إلا بولاء كل أبنائها وانتماء جميعهم لدولتها ولقومات هويتها وأمنها الوطني والقومي والحضاري، "اشتراط هذا العهد على نصارى "نجران" أن يكون الولاء خالصا والانتماء كاملا لهذه الأمة الواحدة ولهذه الدولة الإسلامية، فالولاء كل الولاء لها وحدها، والبراء كل البراء من جميع أعدائها"²³.

لهذا نجد الميثاق في الفقرات 90-93-102 قد اشتراط على نصارى نجران أمورا يجب عليهم الوفاء بها، منها: "ألا يكون أحد منهم عينا ولا رقبيا لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين في سره وعلائيته، ولا يأوى منازلهم عدو للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم، ولا في شيء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يوفدوا أحدا من أهل الحرب على المسلمين بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم.

ولا يقروا من نزل عليهم من المسلمين ثلاثة أيام بلياليها في أنفسهم ودوابهم، حيث كانوا وحيث مالوا، يبذلون لهم القرى الذي منه يأكلون، ولا يكلفوا سوى ذلك فيحملوا الأذى عليهم والمكروه، وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يأوؤهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشوا به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئا من الواجب عليهم"²⁴.

حق الذمام والذب عن الحرمة، واستوجبوا أن يذب عنهم كل مكروه، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم¹⁸.

ثالثا، التعاون والتكافل

بقدر اهتمام الميثاق بالقيم ذات الطابع السياسي (الحرية، العدل، المساواة..) بقدر اهتمامه بالقيم والأخلاق الاجتماعية؛ إذ نص العهد على ضرورة التكافل الاجتماعي والتعاون على الخير بين المسلمين والنصارى، حتى يكونوا يدا واحدة على من عاداهم؛ إذ جعل الميثاق من واجبات الطرفين التعاون في الدفاع المشترك على حرمت بعضهم البعض، والتعاون في وفاء الدين على الفارمين من الفريقين. إذ نقرأ في الفقرة 66 من الميثاق أنه "إن أكرم أحد من النصارى أو جني جنائية، فعلى المسلمين نصره، والمنع والذب عنه، والغرم عن جريرته، والدخول في الصلح بينه وبين من جني عليه، فإما من عليه، أو يفادى به، ولا يرفضوا ولا يخادلوا ولا يتركوا هملا"¹⁹.

رابعا: أعلى قيم التسامح

وقد ألزم الميثاق المسلمين بتقديم يد العون والمساعدة للنصارى، وإن تعلق الأمر بإصلاح وترميم كنائسهم، وهذه قمة في التسامح لم تبلغها إلا أخلاق القرآن، التي جاءت لنشر السلم وتحقيق الأمن بين مختلف أتباع الديانات، وبالتالي القضاء على أجواء الاحتقان الديني والتعصب المذهبي الذي عانى من ويلاته العالم قبل مجيء الإسلام، وعن تلك الصورة السامقة من التسامح القرآني نقرأ في الميثاق الفقرة 81: "ولهم إن احتاجوا في مرمة بيعهم وصوامعهم أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم، إلى رفق²⁰ من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يرفدوا على ذلك ويعانوا، ولا يكون ذلك دينا عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم"²¹.

"أي مستوى هذا من [التعاون والتسامح والعدالة]!

سادسا: الإطلاقية (الاستمرار والثبات)... لا النسبية (التغير والتبدل)

متى التزم النصارى بهذه الشروط، فإن العهد معهم يكسب صفة الإطلاقية والاستمرارية، لا ينقض ولا يغير حتى تقوم الساعة إن شاء الله، جاء في الفقرة الأخيرة من الميثاق "... وعليهم العهود والمواثيق التي أخذت عن الرهبان وأخذتها، وما أخذ كل نبي على أمته من الأمان، والوفاء لهم وحفظهم به، ولا ينقض ذلك ولا يغير حتى تقوم الساعة إن شاء الله²⁵". مما ينسجم مع قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود" (المائدة: 1)؛ "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم" (النحل: 91)؛ "وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسئولا" (الإسراء: 34)؛ والمؤمنون حقا يصفهم القرآن بأنهم "والموفون بعهدهم إذا عاهدوا" (البقرة: 176)؛ وبأنهم "الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق" (الرعد: 22). إن الوفاء بالعهد عام على كل عهد، وأنه مبدأ عام يشمل التعامل بين المسلمين وغيرهم على مر العصور حتى قيام الساعة، ما دام الطرف الآخر لم يخرج على شروطه وينقض العهد. بما ينسجم مع قوله تعالى: "فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين" (التوبة: 7).

وفي حالة ابتداء الطرف الآخر بنقض الميثاق والإخلال بأحد شروطه، فإن المسلمين يكونون في حل من العهد المبرم بينهم؛ فقد جاء في الفقرة الأخيرة من الميثاق: "فمن نكث شيئا من هذه الشرائط وتعداها إلى غيرها فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله²⁶" وفي ذلك يقول الله تعالى: "وما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين" (الأنفال: 59).

يقول صاحب "في ظلال القرآن" في تفسيره لهذه الآية: "إن الإسلام يعاهد ليصون عهده؛ فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهره وعلانية؛ ولم يخن ولم يغدر؛ ولم يفش ولم يخدع؛ وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم...

وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة.. إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبد، ولا يروع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم... إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع؛ ويريد للبشرية أن تعف؛ فلا يبيع الغدر في سبيل الغلب؛ وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة... إن الإسلام يكره الخيانة، ويحترم الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة... إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ، ومتى استحلّت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة... وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية؛ لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات²⁷."

إن الوفاء بالعهود مبدأ عام في الإسلام، يشمل التعامل بين المسلمين وبعضهم وبينهم وبين غيرهم في وقت السلم وفي وقت الحرب على حد سواء. بعد هذا الاستطراد الضروري²⁸ نعود فنقول: إن النصارى من أهل الكتاب قد عاشوا حياة مطمئنة آمنة في عهد رسول الله؛ لأن الميثاق الذي أبرمه معهم قد "بدد هاجس خوفهم وجعل من حفظ كرامتهم حقا وواجبا على دولة الإسلام التي كانت تفاوضهم من مركز قوة لا تشوبها شائبة ضعف ولكنها حفظت لهم، مع ذلك، الكرامة كحق إلهي²⁹."

وفي ضوء تلك العهود والمواثيق التي أبرمها رسول الله مع أهل الكتاب من يهود ونصارى، وفي الاتجاه نفسه، نقرأ من تعليمات الرسول، صلى الله عليه وسلم، بخصوص أهل الكتاب الموجهة

حث الميثاق
المسلمين بمد يد
العون للنصارى
حتى فيما يتصل
بإصلاح وترميم
كنائسهم..

”



▲ جمال اللغة وجمال الشهادة

بفضل قدراته الاستيعابية، من فرص للتعايش السلمي والتفاعل الحضاري بين شعوب العالم المختلفة، وقد ترتب عن هذا التعايش الثلاثي تشريعات أساسية، أسهمت في توطيد العلاقة بينهم، وقوت فرص التلاحم والتعارف بين مختلف المساكنين في الوطن الإسلامي، ومن ذلك:

1. إباحة التزوج بالكتايبات³³

لقد سلكت التطبيقات الإسلامية باب المصاهرة والزواج بين المسلمين وبين الكتايبات المحصنات لتحقيق أعلى درجات التلاحم بين غير المسلمين وبين المسلمين في بناء الأمة الواحدة، فزواج المسلم من الكتايبية يدخل ذويها من غير المسلمين في دائرة "أولي الأرحام" عند المسلمين وتلك قمة التلاحم والاندماج، وعنها يقول محمد عبده: "أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتايبية

إلى المسلمين: "ألا من ظلم معاهدا، أو كلفه فوق طاقتة، أو انتقصه، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"³⁰. "من قتل قتيلًا من أهل الذمة، لم يجد ريح الجنة"³¹؛ "إن الله تعالى جعل السلام تحية لأمتنا، وأمانا لأهل ذمتنا"³².

ونحن نقرأ هذه الأحاديث الداعية إلى حسن معاملة أهل الذمة من يهود ونصارى لا ينبغي أن تغيب عنا، أصول الرؤية القرآنية المؤسسة لعلاقة المسلمين بغيرهم، والتي تعد بمثابة محددات منهجية ضابطة لتلك العلاقة والتي جماعها التوحيد، بما يقرره من تكريم للإنسان ومساواة بين البشر "وأن هذه أمتكم واحدة، وأنا ربكم فاعبدون" (المؤمنون: 53).

وبهذا انصهر أتباع الديانات الثلاث في المجتمع الإسلامي، وذابت الفروق بينهم لما وفره الإسلام،

فلقد أباح الإسلام للمسلمين أكل ذبائح أهل الكتاب³⁸ "وهنا نطلع على صفحة من صفحات السماحة الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين، ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي... إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية، ثم يعتزلهم، فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفون معزولين أو منبوذين، إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة والمجاملة والخلطة، فيجعل طعامهم حلاً للمسلمين وطعام المسلمين حلاً لهم كذلك ليتم التجاور والتضاييف والمؤاكلة والمشاركة، وليظل المجتمع كله في ظل المودة والسماحة"³⁹.

فالحكمة من مؤاكلة أهل الكتاب ومصاهرتهم تكمن في "إزالة الفجوة التي تحجبهم عن محاسن الإسلام، وذلك ليعرفوا حقيقة الإسلام الذي هو أصل دينهم قد أكمله الله تعالى بحسب سننه في الترفي البشري والتدريج في كل شيء إلى أن ينتهي إلى كماله وهذا من مناسبات جعل الآية بعد الآية المصراحة بإكمال الدين"⁴⁰⁴¹.

ويزيد من سمو هذا الانفتاح الإسلامي، تعميم التطبيقات الإسلامية لهذا المنهاج على أهل الديانات الوضعية أيضاً، فلم يقف المسلمون في تعاملهم بمقتضيات منهاج القرآن في العلاقة بالآخر، عند اليهود "أهل التوراة"، والنصارى "أهل الانجيل" فقط، وإنما عموها لتشمل "المجوس" و"الهندوس" و"البوذيين"، فعندما فتح المسلمون بلاد فارس وأهلها مجوس يعبدون النار، ويقولون بإلهين أحدهما؛ للخير والنور، وثانيهما، للشر والظلمة. عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، هذا الأمر والواقع المستجد على مجلس الشورى في مسجد المدينة وقال:

كيف أصنع بالمجوس؟

فوثب عبد الرحمان بن عوف رضي الله عنه فقال:

أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

نصرانية أو يهودية وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها والقيام بفروض عبادتها والذهاب إلى كنيسها أو بيعتها، وهي منه بمنزلة البعض من الكل، وأنزله من الظل، وصاحبه في العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه، لم يفرق الدين في حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية، ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها، من حكم قوله تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون" (الروم: 20). فلها حظها من المودة ونصيبها من الرحمة وهي كما هي، وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له، أين أنت من صلة المصاهرة التي تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وما يكون بين الأولاد وأخوالهم وذوي القربى لوالداتهم، أغييب عنك ما يستحكم من روابط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه³⁴³⁵.

ولذلك، وحتى يكون هذا الزواج سبيلاً لهذا التلاحم، "حرص عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مع نصارى "نجران" على أن يتوفر لهذا الزواج عنصر الرضا والقبول، فالمرأة لا بد في زواجها من ولي، وأولياء الكتابية كتابيون، فلا بد أن يكون هذا الزواج عن محبة ورضا وقبول واختيار، وعن هذا المبدأ الإسلامي جاء في ميثاق نصارى نجران³⁶."

"ولا يحملوا من النكاح شططا لا يريدونه، ولا يكره أهل البنت على تزويج المسلمين، ولا يضاروا في ذلك أن منعوا خاطبا وأبوا تزويجا؛ لأن ذلك لا يكون إلا بطيبة قلوبهم، وسماحة أهوائهم، إن أحبه ورضوا به"³⁷.

2. إباحة أكل ذبائحهم

لقد شرع باب
المصاهرة والزواج
بين المسلمين
والكتابيات
المحصنات لتحقيق
أعلى درجات
التلاحم في كنف
الأمة الواحدة..

”

يدل على ذلك ميثاق نصارى نجران، تتمثل في التعددية وحرية العقيدة والعدل والمساواة والحرية.. وهي قيم ومبادئ جعلت من التسامح الديني سمة بارزة في الميثاق، تسامح لم تعهده الشعوب من قبل؛ إذ أصبح أهل الأديان آمنين محميين من الإكراه الديني، متمتعين بجميع حقوقهم الإنسانية من حيث هم بشر، بغض النظر عن عقائدهم الدينية وألسنتهم وألوانهم..

"سنا فيهم سنة أهل الكتاب"⁴².

ولم يتوقف المنهج القرآني في التعامل مع الآخر المختلف دينيا عند حد أهل الديانات فحسب، إنما امتد ليشمل "المشركين المسلمين للإسلام، مما يوضح البعد الشامل الذي أعطاه الإسلام لإستراتيجية التعايش السلمي والاعتراف بالآخر"⁴³. سواء كان من أهل الكتاب أو مشركا وثنيا.

إجمالا، إن منظومة القيم التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، كما

23. محمد عمارة، حرية الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، م، س، ص 134.
24. محمد حميد الله، م، س، ص 190.
25. المرجع نفسه.
26. المرجع نفسه.
27. سيد قطب، في ظلال القرآن، م، س، ج 3، ص 1542.
28. ويكسب هذا الاستطراد أهميته من خلال اعتبار العديد من المفسرين أن المواثيق التي أبرمها الرسول، صلى الله عليه وسلم، مع أهل الكتاب تتخذ طابع المرحلة وهي ليست بالأحكام النهائية وإنما كانت تلك المواثيق "تكتيكا" خاضعا لظروف الدولة الإسلامية، وإنه لما تقوت شوكة الدولة الإسلامية، فإن تلك المواثيق لم تعد ملزمة لها.
29. عبد الهادي بوطالب، من قضايا الإسلام المعاصر، م، س، ص 95.
30. سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تمشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، رقم الحديث 3052.
31. سنن النسائي، (المجتبى)، كتاب القسامة، باب تعظيم قتل المعاهد، رقم الحديث 4750.
32. مسند أحمد، شعب الإيمان، الحادي والستون من شعب الإيمان وهو باب في مقارنة أهل الدين، رقم الحديث 8798.
33. للاطلاع على أقوال الفقهاء واختلافاتهم بخصوص هذه المسألة راجع القرطبي، دار الحديث، القاهرة ط (1413هـ/2002م)، ج 3، ص 449.
34. محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، القاهرة، دار الشروق، 1993، ج 3، ص 312، نقلا عن محمد عمارة، حرية الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، م، س، ص 132.
35. ورد في سفر التثنية من العهد القديم، الإصحاح 7، "متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبا كثيرة من أمامك... لا تقطع لهم عهدا، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم ابنتك، لا تعط لابنه، وابنته لا تأخذ لابنك... ولكن هكذا تفعلون بهم تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم... لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك".
36. محمد عمارة، حرية الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، م، س، ص 133.
37. محمد حميد الله، م، س، ص 189.
38. اختلف أهل العلم بخصوص هذه المسألة على أقوال كثيرة، راجع القرطبي، م، س، ج 3، ص 449، والراجح إباحة أكل ذبائحهم وهو ما يتناسب مع قوله تعالى: "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم" (المائدة: 6).
39. سيد قطب، في ظلال القرآن، م، س، ج 2، ص 848.
40. الآية المصروفة بإكمال الدين هي قوله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً" (المائدة: 3).
41. محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دمشق: دار الفكر، ط 2، د. ت، ج 6، ص 195.
42. البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1956، ج 1، ص 327.
43. عبد الهادي بوطالب، من قضايا الإسلام المعاصر، م، س، ص 77.

1. راجع نص العهد: على اختلاف رواياته: محمد حميد الله، بيروت: دار النفائس ط 6، ص 175 وما بعدها، كما تجد في نفس الكتاب دعوته لأساقفة نجران، ص 174.
2. راجع ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، مكتبة الصفا، ط (1426هـ/2004م) ج 2، ص 323.
3. عماد الدين خليل، المسلم والآخر: رؤية تاريخية، م. إسلامية المعرفة، س. 9، ج 33-34، 2003م، ص 95.
4. محمد عمارة، حرية الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، م. إسلامية المعرفة، م، س، ص 131.
5. عبد الهادي بوطالب، من قضايا الإسلام المعاصر، مطبعة النجاح، البيضاء ط 1، 2004م، ص 76.
6. محمد حميد الله، م، س، ص 188.
7. المرجع نفسه.
8. المرجع نفسه، ص 187.
9. راجع: ابن القيم الجوزية، م، س، ج 2، ص 323.
10. محمد حميد الله، م، س، ص 187.
11. المرجع نفسه.
12. وقد أعطى المسلمون هذه الحقوق نفسها لكل البلاد التي دخلت سيطرتهم، وإذا كان بعض الفقهاء قد تشدد في وضع بعض القيود على بناء المعابد والكنايس، فإن هذا لم يكن مؤثرا كثيرا في الواقع الفعلي، يقول السيرتوماس أرنولد: "ربما اتفق أصحاب المذاهب لسبب أو لآخر على أن الذميين لا يسمح لهم أن يبنوا دورا للعبادة في المدن التي أسسها المسلمون، ولكن السلطة المدنية (بفتوى من فقيه مصر الليث بن سعد) أباحت للقيط أن يبنوا كنائس في القاهرة العاصمة الجديدة، كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا في بعض المدن الأخرى كناس وأديرة جديدة". الدعوة إلى الإسلام، ص 84، نقلا عن محمد عثمان الخشت: المجتمع المدني والتعددية والتسامح في سياق الحضارة الإسلامية، م. التسامح، سلطنة عمان، ع 12، السنة 3، خريف (1426هـ/2005م)، ص 61-62.
13. محمد حميد الله، م، س، ص 189.
14. المرجع نفسه.
15. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، دار العلم للملايين، ط 2، (1401هـ/1981م)، ج 2، ص 439.
16. محمد عمارة، حرية الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي، م، س، ص 131.
17. محمد حميد الله، م، س، ص 188.
18. المرجع نفسه، ص 188-189.
19. المرجع نفسه، ص 188.
20. رفد: "وإن استرغدت ترفدون" الاسترقاد: الاستعانة. والإرصاد: الإعانة، محمد حميد الله، م، س، ص 605.
21. المرجع نفسه، ص 190.
22. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق ط 30، (1422هـ/2001م)، ج 2، ص 751.